

الباب الثانى والخمسون فى آداب الشيخ وما يعتمده مع الأصحاب والتلاميذ

أهم الآداب : أن لا يتعرّض الصادق المتقدم على القوم ، ولا يتعرض لاستجلاب بواطنهم بلطف الرفق وحسن الكلام محبة للاستتباع ؛ فإذا رأى أن الله تعالى يبعث إليه المريدين والمسترشدين بحسن الظن وصدق الإرادة ، يحذر أن يكون ذلك ابتلاءً وامتحاناً من الله تعالى .

والنفوس مجبولة على محبة إقبال الخلق ، والشهرة ، وفى الخمول السلامة .

فإذا بلغ الكتاب أجله ، وتمكّن العبد من حاله ، وعلم - بتعريف الله إياه - أنه مُراد بالإشارة والتعليم للمريدين ، فيكلمهم حينئذ كلام الناصح المشفق الوالد لولده بما ينفعه فى دينه ودنياه .

وكل مرید ومسترشد - ساقه الله تعالى إليه - يراجع الله تعالى فى معناه^(١) ، ويكثر اللجأ إليه أن يتولاه فيه ، وفى القول معه .

ولا يتكلم مع المرید بالكلمة إلا وقلبه ناظر إلى الله ، مستعين به فى الهداية للصواب من القول .

سمعت شيخنا أبا النجيب السهروردى - رحمه الله - يوصى بعض أصحابه ويقول : لا تكلم أحداً من الفقهاء إلا فى أوصى أوقاتك .

وهذه وصية نافعة ؛ لأن الكلمة تقع فى سمع المرید كالحبة تقع فى الأرض .

وقد ذكرنا أن الحبة الفاسدة تهلك وتضيع ، وفساد حبة الكلام بالهوى ، وقطرة من الهوى تُكدر بحراً من العلم ؛ فعند الكلام مع أهل الصدق والإرادة ينبغى أن يستمد القلب من الله تعالى كم يستمد اللسان من الجنان .

وكما أن اللسان ترجمان القلب يكون قلبه ترجمان الحقّ عند العبد ، فيكون ناظراً إلى الله ، مصغياً إليه متلقياً ما يرد عليه ، مؤدياً للأمانة فيه .

(١) أى فى داخله وأعماقه وباطنه .

ثم ينبغى للشيخ أن يعتبر حال المريـد ، ويتفرّس فيه بنور الإيمان وقوة العلم والمعرفة ما يتأتى منه ومن صلاحيته واستعداده ؛ فمن المريـدين من يصلح للتعبـد المحض وأعمال القوالب وطريق الأبرار .

ومن المريـدين من يكون مستعداً صالحاً للقرب وسلوك طريق المقربين المرادين بمعاملة القلوب والمعاملات السنية .

ولكل من الأبرار والمقربين مبادئ ونهايات . فيكون الشيخ صاحب الإشراف على البواطن يعرف كل شخص وما يصلح له .

والعجب أن الصحراوي يعلم الأراضى والغروس ويعلم كل غرس وأرضه ، وكل صاحب صنعة يعلم منافع صنعته ومضارها ، حتى المرأة تعلم قطنها وما يتأتى منه من الغزل ودقته وغلظه ، ولا يعلم الشيخ حال المريـد وما يصلح له ؟!

وكان رسول الله ﷺ يكلم الناس على قدر عقولهم ، ويأمر كل شخص بما يصلح له ؛ فمنهم من كان يأمره بالإنفاق ، ومنهم من أمره بالإمساك ، ومنهم من أمره بالكسب ، ومنهم من قرره على ترك الكسب كأصحاب الصفة ، فكان رسول الله ﷺ يعرف أوضاع الناس ، وما يصلح لكل واحد ، فأما فى رتبة الدعوة فقد كان يُعمم الدعوة ؛ لأنه مبعوث لإثبات الحجة ، وإيضاح المحجة ، يدعو على الإطلاق ولا يخص بالدعوة من يتفرّس فيه الهداية دون غيره .

ومن أدب الشيخ : أن يكون له خلوة خاصة ، ووقت خاص لا يسعه فيه معاناة الخلق حتى يفيض على جلوته فائدة خلوته ، ولا تدعى نفسه قوة ، ظناً منها أن استدامة المخالطة مع الخلق والكلام معهم لا يضره ولا يأخذ منه ، وأنه غير محتاج إلى الخلوة ، فإن رسول الله ﷺ مع كمال حاله كان له قيام الليل ، وصلوات يصلحها ، ويدوم عليها ، وأوقات يخلو فيها .

فطبع البشر لا يستغنى عن السياسة ، قل ذلك أو أكثر ، لطف ذلك أو كثف .

وكم من مغرور قانع باليسير من طيبة القلب اتخذ ذلك رأس ماله ، واغترّ بطيبة قلبه ، واسترسل فى الممازجة والمخالطة ، وجعل نفسه مناخاً للبطالين بلقمة تُؤكل عنده ؛ ويرفق بوجود منه . فيقصده من ليس قصده الدين ، ولا بُغيته سلوك طريق المتقين . فافتتن وأفتن ، وبقي فى خطة القصور ووقع فى دائرة الفتور ، فما يستغنى الشيخ عن الاستمداد

من الله تعالى والتضرع بين يدي الله بقلبه إن لم يكن بقلبه وقلبه ، فيكون له فى كل كلمة إلى الله الرجوع ، وفى كل حركة بين يدي الله خضوع .

وانما دخلت الفتنة على المرورين المدعين للقوة والاسترسال فى الكلام والمخالطة ؛ لقلّة معرفتهم صفات النفس ، واغترارهم ببسير من الموهبة ، وقلّة تأدّبهم بالشيخ .

كان الجنيد - رحمه الله - يقول لأصحابه : لو علمت أن صلاة ركعتين لى أفضل من جلوسى معكم ما جلست عندكم .

فإذا رأى الفضل فى الخلوة يخلو، وإذا رأى الفضل فى الجلوة يجلس مع الأصحاب ، فتكون جلوته فى حماية خلوته ، وجلوته مزيداً لخلوته ، وفى هذا سرّ، وذلك : أن الآدمى ذو تركيب مختلف ، فيه تضادّ وتغاير - على ما أسلفنا - من كونه متردداً بين السفلى والعلوى ، ولما فيه من التغاير له حظّ من الفتور عن الصبر على صرف الحق ، ولهذا كان لكل عامل فترة ، والفترة قد تكون تارة فى صورة العمل ، وتارة فى عدم الروح فى العمل ، وإن لم تكن فى صورة العمل ، وفى وقت الفترة للمريدين والسالكين تصييع واسترواح للنفس ، وركون إلى البطالة .

فمن بلغ رتبة المشيخة انصرف قسمُ فترته إلى الخلق ، فأفلق الخلق بقسم فترته ، وما ضاع قسم فترته كضياعه فى حق المريدين ؛ فالمريد يعود من الفترة بقوة الشدّة ، وحادّة الطلب إلى الإقبال على الله .

والشيخ يكتسب الفضيلة من نفع الخلق بقسم فترته ويعود إلى أوطان خلوته وخاص حاله بنفس مشرّبة ، أكثر من عود الفقير بحدّة إرادته من فترته ، فيعود من الخلق إلى الخلوة منتزع الفتور، بقلب متعطش وافر النور ، وروح متخلصة عن مضيق مطالعة الأغيار، قادمة بحدّة شغفها إلى دار القرار .

ومن وظيفة الشيخ : حُسن خُلّقه مع أهل الإرادة والطلب ، والنزول من حقه فيما يجب من التبجيل والتعظيم للمشايخ ، واستعماله التواضع .

حكى الرقى قال: كنت بمصر، وكنا فى المسجد جماعة من الفقراء جلوساً، فدخل الزقاق، فقام عند اسطوانة يركع، فقلنا يفرغ الشيخ من صلاته ونقوم نسلم عليه، فلما فرغ جاء إلينا وسلّم علينا، فقلنا: نحن كنا أولى بهذا من الشيخ. فقال: ما عذّب الله قلبى بهذا قط، يعنى: ما تقيدتُ بأن أحترم وأقصد .

ومن آداب الشيوخ : النزول إلى حال المريدين من الرفق بهم وبسطهم ؛ قال بعضهم :
إذا رأيت الفقير فألقه بالرفق ولا تلقه بالعلم ، فإن الرفق يؤنس العلم ويوحشه .

فإذا فعل الشيخ هذا المعنى من الرفق يتدرج المريد ببركة ذلك إلى الانتفاع بالعلم فيعامل
حينئذ بصريح العلم .

ومن آداب الشيوخ : التعطف على الأصحاب وقضاء حقوقهم فى الصحة والمرض .
ولا يترك حقوقهم اعتماداً على إرادتهم وصدقهم ، وقال بعضهم : لا تضع حق أخيك بما
بينك وبينه من المودة .

وحكى عن الجريرى قال : وافيت من الحج ، فابتدأت بالجنيد ، وسلمت عليه
وقلت : حتى لا يتعنى^(١) ثم أتيت منزلى فلما صليت الغداة التفتت وإذا بالجنيد خلفى ،
فقلت : يا سيدى إنما ابتدأت بالسلام عليك ، لكيلا تتعنى إلى هاهنا . فقال لى :
يا أبا محمد ، هذا حقك وذاك فضلك .

ومن آداب الشيوخ : أنهم إذا علموا من بعض المسترشدين ضعفاً فى مراغمة النفس
وقهرها واعتماد صدق العزيمة : أن يرفقوا به ، ويوقفوه على حد الرخصة ، ففى ذلك
خير كثير .

وما دام العبد لا يتخطى حريم الرخصة فهو حر ، ثم إذا ثبت وخالط الفقراء ، وتدرّب
فى لزوم الرخصة يدرج بالرفق إلى أوطان العزيمة .

قال أبو سعيد بن الأعرابى : كان شاب يعرف بـ (إبراهيم الصائغ) وكان لأبيه نعمة ،
فانقطع إلى الصوفية وصحب أبا أحمد القلانسى ، فربما كان يقع بيد أبى أحمد شىء من
الدراهم فكان يشتري له الرقاق والشواء والحواء ويؤثره عليه ويقول : هذا خرج من الدنيا
وقد تعود النعمة ، فيجب أن نرفق به ، ونؤثره على غيره .

ومن آداب الشيوخ : التنزه عن مال المريد ، وخدمته ، والارتفاق من جانبه بوجه من
الوجوه ؛ لأنه جاء لله تعالى ، فيجعل نفعه وإرشاده خالصاً لوجه الله تعالى ، فما يسدى
الشيخ للمريد من أفضل الصدقات .

وقد ورد (ما تصدق متصدق بصدقة أفضل من علم يبئته فى الناس) .

(١) التعى : التعب والمشقة .

وقد قال الله تعالى : تنبيهاً على خلوصي ما لله وحراسته من الشوائب ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾^(١) .

فلا ينبغي للشيخ أن يطلب على صدقته جزاءً ، إلا أن يظهر له في شيء من ذلك علم يرد عليه من الله تعالى في قبول الرفق منه ، أو صلاح يتراءى للشيخ في حق المريد بذلك ، فيكون التلبس بماله والارتفاق بخدمته لمصلحة تعود على المريد ، مأمونة الغائلة من جانب الشيخ ، قال الله تعالى : ﴿يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالِكُمْ إِنْ يَسْأَلُكُمْوهَا فَيُحْفَكُمْ تَبَخَّلُوا وَبَخْلُوا﴾^(٢) . ومعنى يحفكم : أى يجهدكم ويلح عليكم .

قال قتادة : علم الله تعالى أن في خروج المال إخراج الأضعان . وهذا تأديب من الله الكريم . والأدب أدب الله .

قال جعفر الخلدی : جاء رجل إلى الجنيد ، وأراد أن يخرج عن ماله كله ، ويجلس معهم على الفقر ، فقال له الجنيد : لا تخرج من مالك كله ، احبس منه مقدار ما يكفيك ، وأخرج الفضل ، وتفوّت بما حبست ، واجتهد في طلب الحلال ، لا تخرج كل ما عندك ، فلست آمنُ عليك أن تطالبك نفسك .

وكان النبي أفضل الصلاة والسلام عليه إذا أراد أن يعمل عملاً تثبتت ، وقد يكون الشيخ يعلم من حال المريد أنه إذا خرج من الشيء يكسبه من الحال ما لا يتطلع به إلى المال ، فحينئذٍ يجوز له أن يفسح للمريد في الخروج من المال ، كما فسح رسول الله ﷺ لأبي بكر وقبل منه جميع ماله .

ومن آداب الشيوخ : إذا رأى من بعض المريدين مكروهاً ، أو علم من حاله اعوجاجاً ، أو أحسن منه بدعوى ، أو رأى أنه داخله عجب : أن لا يُصرِّح له بالمكروه ، بل يتكلم مع الأصحاب ويشير إلى المكروه الذى يعلم ، ويكشف عن وجه المذمة مجملاً ، فتحصل بذلك الفائدة للكل ، فهذا أقرب إلى المداراة ، وأكثر أثراً لتألف القلوب .

وإذا رأى من المريد تقصيراً في خدمة ندمه إليها : يحمل تقصيره ، ويعفو عنه ، ويحرّضه على الخدمة بالرفق واللين .

(١) آية رقم ٩ من سورة الإنسان .

(٢) آية رقم ٣٧ من سورة محمد .

وإلى ذلك ندب رسول الله ﷺ ، فيما أخبرنا به ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال : أخبرنا أبو افتح الكرخي قراءة قال : أخبرنا أبو نصر الترياقى قال : أخبرنا أبو محمد الجرحي ، قال : أخبرنا أبو العباس المحيوي قال : أخبرنا أبو عيسى الترمذي قال : حدثنا قتيبة ، قال : حدثنا راشد بن سعد ، عن أبي هلال الخولاني ، عن ابن عباس بن جليد الحجري ، عن عبد الله بن عمر قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، كم أعفو عن الخادم ؟ قال : (كل يوم سبعين مرة)^(١) .

وأخلاق المشايخ مهذبة بحسن الاقتداء برسول الله ﷺ ، وهم أحق الناس بإحياء سنته في كل ما أمر وندب وأنكر وأوجب .

ومن جملة مهام الآداب : حفظ أسرار المريدين فيما يكشفون به ويمنحون من أنواع المنح . فسر المريد لا يتعدى ربه وشيخه .

ثم لا يحقر الشيخ في نفس المريد ما يجده في خلوته من كشف أو سماع خطاب ، أو شيء من خوارق العادات ، ويعرفه أن الوقوف مع شيء من هذا يشغل عن الله ويسد باب المزيد ، بل يعرفه أن هذه نعمة تُشكر ، ومن ورائها نعم لا تُحصى ، ويعرفه أن شأن المريد طلب المنعم لا النعمة ، حتى يبقى سره محفوظاً عن نفسه وعند شيخه .

ولا يذيع سره ، فإذا عاين الأسرار من ضيق الصدر ، وضيق الصدر الموجب لإذاعة السر يُوصف به النسوان وضعفاء العقول من الرجال .

وسبب إذاعة السر أن للإنسان قوتين : آخذة ، ومعطية ، وكلتاها تتشوّف إلى الفعل المختص بها ، ولولا أن الله سبحانه وتعالى وكّل المعطية بإظهار ما عندها ما ظهرت الأسرار ؛ فكامل العقل كلما طلبت القوة الفعل قيدها ، ووزنها بالعقل حتى يضعها في مواضعها ، فيجلّ حال الشيوخ عن إذاعة الأسرار لرزانة عقولهم .

وينبغي للمريد أن يحفظ سره من بئنه ؛ ففي ذلك صحته وسلامته ، وتأيد الله سبحانه وتعالى له بتدارك المريدين الصادقين في موردتهم ومصدرهم .